ثم يُفسِّر سبب هذا الإحسان : ﴿ كَانُوا قَلِيلاً مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ (١٧) وَبِالأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ (١٨) وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ (١٩) ﴾ [الذاريات]

ومَنْ يلزمك بهذه التكاليف ؟ لك أنْ تصلي العشاء ثم تنام إلى الفجر ، كذلك لم يُلزمك بالاستغفار وقت السَّحَر ، ولم يلزمك بصدقة التطوع . إذن : هذه طاعات فوق ما فرض الله وصلَتْ بأصحابها إلى مقام الإحسان ، وأعلى مراتب الإيمان ، فليُشمِّر لها مَنْ أراد .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ (٣٨) ﴾

صَدْر الآية : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا .. (٣٨) ﴾ [الحج] يُشْعِرنا أن هناك معركة ، والمعركة التي يدافع الله فيها لابُدَّ أنها بين حق أنزله ، وباطل يُواجهه ، وقد تقدَّم قبل ذلك أن قال تبارك وتعالى : ﴿ هَٰذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ .. (١٩) ﴾ [الحج]

وما دام أن هناك خصومة فلا بُدَّ أنْ تنشأ عنها معارك ، هذه المعارك قد تأخذ صورة الألفاظ والمجادلة ، وقد تأخذ صورة العنف والقوة والشراسة والالتحام المباشر بأدوات الحرب .

ومعركة النبي ﷺ مع معارضيه من كفار مكة لم تقف عند حَدِّ المعركة الكلامية فحَسْب ، فقد قالوا عنه - صلوات الله وسلامه عليه : ساحر ، وكاهن ، ومجنون ، وشاعر ، ومُفْتر .. إلخ ثم تطوَّر الأمر إلى إيذاء أصحابه وتعذيبهم ، فكانوا يأتون رسول الله مَشْدُوخين

ومجروحين فيقول لهم ﷺ : « لم أومر بقتال ، اصبروا اصبروا ، صبراً صبراً .. » .

إلى أنْ زاد اعتداء الكفار وطَفَح الكَيْل منهم أذن الله لرسوله بالقتال ، فقال : ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾﴾ [الحج]

فقوله تعالى : ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا .. ﴿٣٨﴾﴾ [الحج] صيغة يدافع : مبالغة منْ يدفع ، معنى يدفع يعنى : شيئاً واحداً ، أو مرة واحدة ، وتنتهى المسألة ، أمّا يدافع فتدل على مقابلة الفعل بمثله ، فالله يدفعهم وهم يقابلون أيضاً بالمدافعة ، فيحدث تدافع وتفاعل من الجانبين ، وهذا لا يكون إلا فى معركة .

والمعركة تعنى : منتصر ومنهزم ، لذلك الحق - تبارك وتعالى - يُطمئن المؤمنين أنه سيدخل المعركة فى صفوفهم ، وسيدافع عنهم .

فقوله تعالى : ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا .. ﴿٣٨﴾﴾ [الحج] أمر طبيعى ؛ لأن الحق سبحانه ما كان ليُرسل رسولاً ، ويتركه لأهل الباطل يتغلَّبون عليه ، وإلاَّ فما جَدْوى الرسالة إذن ؛ لذلك يُطمئِن الله تعالى رسوله ويُبشِّره ، فيقول :

﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴿١٧٣﴾﴾ [الصافات]

وقال : ﴿وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ .. ﴿٤٠﴾﴾ [الحج]

وقال : ﴿إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴿٧﴾﴾ [محمد]

فهذه كلها آيات تُطمئِن المؤمنين وتُبشِّرهم ، وقد جاءتْ على

مراحل لحكمة أرادها الحق سبحانه ، فمنعهم عن القتال في البداية لحكمة ، ثم جعل القتال فيما بينهم ، وقبل أنْ يأذنَ لهم في قتال أعدائهم لحكمة : هي أنْ يَبْلُوا المؤمنين ويُمحِّصهم ليُخرِج من صفوفهم أهل الخَوَر والجُبْن ، وضعيفي الإيمان الذين يعبدون الله على حَرْف ، ولا يبقى بعد ذلك إلا قويُّ الإيمان ثابتُ العقيدة ، الذي يحمل راية هذا الدين وينساح بها في بقاع الأرض ؛ لأنها دعوة عالمية لكل زمان ولكل مكان إلى أنْ تقوم الساعة ، ولما كانت هذه الدعوة بهذه المنزلة كان لا بُدَّ لها من رجال أقوياء يحملونها ، وإلا لو استطاع الأعداءُ القضاءَ عليها فلن تقومَ لدين الله قائمة .

إذن : كان لا بُدَّ أن يُصفِّي الحقُّ سبحانه أهلَ الإيمان كما يُصفِّي الصائغُ الذهبَ ، ويُخرِج خَبَثه حين يضعه في النار ، كذلك كانت الفتَن والابتلاءات لتصفية أهل الإيمان وتمييزهم ، لكن بالقتال في صَفٍّ واحد .

ثم يقول سبحانه : ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ (٣٨)﴾ [الحج] فكأن الحق - سبحانه وتعالى - أصبح طرفاً في المعركة ، والخوَّان : صيغة مبالغة من خائن ، وهو كثير الخيانة وكذلك كفور : صيغة مبالغة من كافر .

ومعنى الخيانة يقتضي أن هناك أمانةً خانها . نعم ، هناك الأمانة الأولى ، وهي أمانة التكليف التي قال الله فيها : ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنسَانُ .. (٧٢)﴾ [الأحزاب] فلقد خانَ هذه الأمانة بعد أنْ رَضِي أنْ يكونَ أهْلاً لها .

وهناك أمانة قبل هذه ، وهى العهد الذى أخذه الله على عباده ، وهم فى مرحلة الذَّر[1] : ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ[2] شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَافِلِينَ (١٧٢) أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنْ بَعْدِهِمْ .. (١٧٣)﴾ [الأعراف]

فإنْ قالوا : نعم هذه أمانة ، لكنها بعيدة ، ومَنْ مِنَّا يذكرها الآن ؟

نقول : ألم تُقرُّوا بأن الله خلقكم ، وأوجدكم من عدم ، وأمدكم من عُدم ؟ كما قال سبحانه : ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ .. (٨٧)﴾ [الزخرف] كما أقرُّوا بخَلْق السماوات والأرض وما فيها من خيرات لله عز وجل ، فكان وفاء هذا الإقرار أنْ يؤمنوا ، لكنهم مع هذا كله كفروا ، أليست هذه خيانة للأمانة عاصروها جميعاً وعايشوها وأسهموا فيها ؟

والكَفُور : مَنْ كفر نِعَم الله وجَحَدها .

وما دام هناك الخوَّان والكفُور فلا بُدَّ للسماء أنْ تُؤيِّد رسولها ، وأنْ تنصره فى هذه المعركة أولاً ، بأنْ تأذنَ له فى القتال ، ثم تأمره بأخذ العُدة والأسباب المؤدية للنصر ، فإنْ عزَّتْ المسائل عليكم ، فأنا معكم أؤيدكم بجنود من عندى .

---

(١) الذَّرّ فى اللغة : صغار النمل ، واحدتها ذَرَّة . وذَرَّ الله الخلق فى الأرض : نشرهم . والذرية : فعلية منه ، وهى منسوبة إلى الذر الذى هو النمل الصغار . [لسان العرب - مادة : ذرر] .

(٢) قال ابن كثير فى تفسيره (٢/٢٦١) : « وردت أحاديث فى أخذ الذرية من صلب آدم عليه السلام وتمييزهم إلى أصحاب اليمين وأصحاب الشمال ، وفى بعضها الاستشهاد عليهم بأن الله ربهم .. وقد قال قائلون من السلف والخلف أن المراد بهذا الإشهاد إنما هو فطرهم على التوحيد » .

وقد حدث هذا فى بَدْء الدعوة ، فأيَّد الله نبيه بجنود من عنده[١] ، بل أيَّده حتى بالكافر المعاند : ألم يكُن دليل[٢] رسول الله فى الهجرة كافراً ؟ ألم ينصره الله بالحمام وبالعنكبوت وهو فى الغار ؟ ألم ينصره بالأرض التى ساخَتْ تحت أقدام فرس « سُرَاقة »[٣] الذى خرج فى طلبه ؟

هذه جنود لم نَرها ، ولم يُؤيِّد بها رسول الله ﷺ إلا بعد أن استنفد أسبابه ، ولو أراد سبحانه لَطوَّع لرسوله هؤلاء المعاندين ، فما رفع أحد منهم رأسه بعناد لمحمد ، إنما الحق - تبارك وتعالى - يريد أنْ يعطيه طواعية ويخضع له القوم ، ألم يقُلْ سبحانه وتعالى : ﴿إن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ ﴿٤﴾﴾ [الشعراء]

وقلنا : إن الله تعالى يريدَ أنْ يُخضِع قلوب عباده لا قوالبهم ، فلو أخضعهم الله بآية كونية طبيعية كالريح أو الصاعقة أو الخَسْف ، أو غيره من الآيات التى أخذتْ أمثالهم من السابقين لقالوا : إنها آفاتٌ طبيعية جاءتنا ، لكن جعل الله بين الفريقين هذه المواجهة ، ثم يسَّر لحزبه وجنوده أسباب النصر .

---

(١) قال تعالى : ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴿٩﴾ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ .. ﴿١٠﴾﴾ [الأنفال] . وفى آيات أخرى يقول تعالى : ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُنزَلِينَ ﴿١٢٤﴾ بَلَىٰ إِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴿١٢٥﴾﴾ [آل عمران] .

(٢) هو عبد الله بن أرقط ، وهو رجل من بنى الدِّئل بن بكر ، وكانت أمه امرأة من بنى سهم ابن عمرو ، وكان مشركاً يدلهما على الطريق ، فدفعا إليه راحلتيهما ، فكانتا عنده يرعاهما لميعادهما . [سيرة ابن هشام ٢/٤٨٥] .

(٣) هو : سراقة بن مالك بن جعشم المدلجى الكنانى ، صحابى ، له شعر ، كان ينزل قديداً ، كان فى الجاهلية قائفاً (قصاصاً للأثر) أخرجه أبو سفيان ليقتاف أثر الرسول ﷺ حين خرج إلى الغار مع أبى بكر . أسلم بعد غزوة الطائف سنة ٨ هـ . توفى ٢٤ هـ . [الأعلام للزركلى ٣/٨٠] .

قال سبحانه : ﴿ قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ (١٤) ﴾ [التوبة]

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ (٣٩) ﴾

ودفاع الحق سبحانه عن الحق يأخذ صوراً متعددة ، فأوّل هذا الدفاع : أنْ أذن لهم في أنْ يقاتلوا . ثانياً : أمرهم بإعداد القوة للقتال : ﴿ وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ .. (٦٠) ﴾ [الأنفال]

والمراد أنْ يأخذوا بكل أسباب النصر على عدوهم ، وأن يستنفدوا كل ما لديهم من وسائل ، فإنِ استنفدتم وسائلكم ، أتدخَّل أنا بجنود من عندى لا ترونها ، فليس معنى أن الله يدافع عن الذين آمنوا أن تدخُلَ السماء لحمايتهم وهم جالسون فى بيوتهم ، لا إنما يأخذون بأسباب القوة ويسعَوْنَ ويبادرون هم أولاً إلى أسباب النصر .

ومعنى ﴿ أُذِنَ .. (٣٩) ﴾ [الحج] أنهم كانوا ينتظرون الأمر بالقتال ، ويستشرفون للنصر على الأعداء ، لكن لم يُؤذَن لهم فى ذلك ، فلما أراد الله لهم أنْ يقاتلوا أذن لهم فيه ، فقال تعالى : ﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ (٣٩) ﴾ [الحج]

وعلّة القتال أنهم ظُلموا ، لذلك أمرهم ربهم - تبارك وتعالى - أنْ يقاتلوا ، لكن لا يعتدوا ، كما قال سبحانه : ﴿ وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ (١٩٠) وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ .. (١٩١) ﴾ [البقرة]

إذن : أمرهم أولاً بالصبر ، وفى المرحلة الأولى بأنْ يقاتلوا لردّ العدوان ، وللدفاع عن أنفسهم دون أنْ يعتدوا ، وفى المرحلة الثانية سيقول لهم : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَاعْلَمُوا أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ (١٢٣) ﴾ [التوبة]

وقوله تعالى : ﴿ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ (٣٩) ﴾ [الحج] بأسباب يُمكِّنهم منها ، أو بغير أسباب فتأتيهم قوة خفية لا يرونْها ، وقد رأوا نماذج من ذلك فعلاً .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَـٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُوا رَبُّنَا ٱللَّهُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ(١) وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَـٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا ۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ (٤٠) ﴾

فلو أنهم أُخْرِجوا بحقٍّ كانْ فعلوا شيئاً يستدعى إخراجهم من ديارهم ، كأنْ خدشوا الحياء ، أو هددوا الأمْن ، أو أجرموا ، أو خرجوا على قوانين قبائلهم لكانَ إخراجهُم بحقٍّ .

إنما الواقع أنهم ما فعلوا شيئاً ، وليس لهم ذَنْب ﴿ إِلَّآ أَن يَقُولُوا

(١) البيعة : كنيسة النصارى ، والجمع بِيَع ، قاله ابن عباس فيما أخرجه عنه عبد بن حميد وابن جرير . وقال أيضاً : الصوامع : التى تكون فيها الرهبان ، والبيع : مساجد اليهود . وصلوات : كنائس النصارى ، والمساجد : مساجد المسلمين . [الدر المنثور للسيوطى ٦/٥٩] .

رَبُّنَا اللَّهُ .. ﴿٤٠﴾ ﴾ [الحج] هذه المقولة اعتبرها القوم ذَنْباً وجريمة تستحق أنْ يخرجوهم بها من ديارهم .

كما قال سبحانه فى أهل الأخدود : ﴿وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلاَّ أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴿٨﴾ ﴾ [البروج]

وفى آية أخرى : ﴿هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّا إِلاَّ أَنْ آمَنَّا بِاللَّهِ .. ﴿٥٩﴾ ﴾ [المائدة]

وفى قصة لوط عليه السلام : ﴿قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٥٦﴾ ﴾ [النمل]

إذن : أخرجوهم ، لا لأنهم أهل نجاسة ومعصية ، إنما لأنهم أناسٌ يتطهَّرون ، فالطهارة والعفة جريمتهم التى يُخْرَجُون من أجلها !! كما تقول : لا عيْبَ فى فلان إلا أنه كريم ، أو تقول : لا كرامةَ فى فلان إلا أنه لِصٌّ . فهذه - إذن - صفة لا تمدح ، وتلك صفة لا تذم .

لقد قلب هؤلاء الموازين ، وخالفوا الطبيعة السويّة بهذه الأحكام الفاسدة التى تدل على فساد الطباع ، وأىّ فساد بعد أنْ قلَبوا المعايير ، فكرهوا ما يجب أنْ يُحب ، وأحبوا ما يجب أن يكره ؟ ولا أدلَّ على فساد طبائعهم من عبادتهم لحجر ، وتركهم عبادة خالق السماوات والأرض .

ثم يقول تعالي : ﴿وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيراً .. ﴿٤٠﴾ ﴾ [الحج]

وفى آية أخرى يُبيِّن الحق سبحانه نتيجة انعدام هذا التدافع : ﴿وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الأَرْضُ .. ﴿٢٥١﴾ ﴾ [البقرة]

والفساد إنْ حدث بين الناس فى حركة الحياة فيمكن أنْ يُعوَّض ويُتدارك ، أمّا إنْ تعدّى الفساد إلى مُقوِّمات اليقين الإيمانى فى الأرض

فكره الناس ما يربطهم بالسماء ، وهدموا أماكن العبادة ، فهذه الطامة والفساد الذى لا صلاحَ بعده ، فكأن الآيتين تصوران نوعاً من الإيغال في الفساد ، والاتّضاع فى الجرائم .

وتفسد الأرض حين ينعدم هذا التدافع ، كيف ؟ هَبْ أن ظالماً مستْبداً فى بلد ما يستعبد الناس ويمتصّ خيراتهم بل ودماءهم دون أنْ يردَّه أحد ، لا شكَّ أن هذا سيُحدث فى المجتمع تهاوناً وفوضى ، ولن يجتهد أحد فوق طاقته ، ولمن سَيعمل وخيره لغيره ؟ وهذا بداية الفساد فى الأرض .

فإنْ قُلْنا : هذا فساد بين الناس فى حركة حياتهم يمكن أنْ يصلح فيما بعد ، فما بالك إن امتدَّ الفسادَ إلى أماكن الطاعات والعبادات ، وقطع بين الناس الرباط الذى يربطهم بالسماء ؟

إنْ كان الفساد الأول قابلاً للإصلاح ، ففساد الدين لا يصلح ، لأنك خرَّبْتَ الموازين التى كانت تُنظِّم حركة الحياة ، فأصبح المجتمع بلا ميزان وبلا ضوابط يرجع إليها .

ونلْحظُ فى قوله تعالى : ﴿وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ .. ﴿٤٠﴾﴾ [الحج] جاءت قضية عامة لكل الناس ، فلم يخصْ طائفة دون أخرى ، فلم يَقُلْ مثلاً : لولا دَفْع الله الكافرين بالمؤمنين ، إنما قال مُطْلق الناس ؛ لأنها قضية عامة يستوى فيها الجميع فى كل المجتمعات .

كذلك جاءت كلمة (بعض) عامة ؛ لتدل على أن كُلاً الطرفين صالح أن يكون مدفوعاً مرة ، ومدفوعاً عنه أخرى ، فَهُمْ لبعض بالمرصاد : مَنْ أفسد يتصدَّى له الآخر ليُوقفه عند حَدِّه ، فليس المراد أن طائفة تدفع طائفة على طول الخط .

ومثال ذلك قوله تعالى : ﴿وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ .. (٣٢)﴾ [الزخرف] دون أنْ يُحدِّد أيّهما مرفوع ، وأيهما مرفوع عليه ؛ لأن كلاً منهما مرفوع فى شىء ، ومرفوع عليه فى شىء آخر ؛ ذلك لأن العباد كلهم عيال الله ، لا يُحابى منهم أحداً على أحد .

انظر الآن إلى قوة روسيا فى الشرق وقوة أمريكا فى الغرب ، إنهما مثال لقوله تعالى : ﴿وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ .. (٤٠)﴾ [الحج] فكلٌّ منهما تقف للأخرى بالمرصاد ، ترقبها وترصُد تحركاتها وتقدّمها العسكرى ، وكأن الله تعالى جعلهما لحماية سلامة الآخرين أنْ تقف كُلٌّ منهما موقفَ الحذَر والخوف من الأخرى .

وهذا الخوف والترقُّب والإعداد هو الذى يمنع اندلاع الحرب بينهما ، فما بالك لو قامت بينهما حرب أسفرت عن منتصر ومهزوم ؟ لا بُدَّ أن المنتصر سيعيثُ فى الأرض فساداً ويستبد بالآخرين ، ويستشرى ظُلْمه لعدم وجود مَنْ يُردعه .

ومن رحمة الله بالمؤمنين أنْ يكيد الظالمين بالظالمين بكل ألوانهم وفنونهم ، ويُؤدِّب الظالم بمَنْ هو أشد منه ظُلْماً ؛ ليظلّ أهلُ الخير بعيدين عن هذه المعركة ، لا يدخلون طَرَفاً فيها ؛ لأن الأخيار لا يصمدون أمام هذه العمليات ، لأنهم قوم رِقَاق القلوب ، لا تناسبهم هذه القسوة وهذه الغِلْظة فى الانتقام .

اقرأ قول الله تعالى : ﴿وَكَذَلِكَ نُوَلِّى بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضاً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (١٢٩)﴾ [الأنعام]

وهكذا يُوفِّر الله أهل الخير ، ويحقِن دماءهم ، ويُريح أولياءه من مثل هذه الصراعات الباطلة .

لذلك لما دخل النبى ﷺ مكة دخولَ المنتصر ، بعد أنْ أخرجه

قومه منها ، وبعد أنْ فعلوا به وبأصحابه الأفاعيل ، كيف دخلها وهو القائد المنتصر الذى تمكّن من رقاب أعدائه ؟

دخل رسول الله ﷺ مكة مُطأطىء الرأس ، حتى لتكاد رأسه تلمس قربوس[1] السرج الذى يجلس عليه ، تواضعاً منه ﷺ ، ومع ذلك قال أبو سفيان لما رأى رسول الله فى هذا الموقف ، قال للعباس : لقد أصبح مُلْك ابن أخيك عظيماً[2].

وبعد أن تمكَّن رسول الله من كفار مكة ، وكان باستطاعته القضاء عليهم جميعهم ، قال : « يا معشر قريش ، ما تظنُّون أنِّى فاعل بكم ؟ قالوا : أخ كريم وابن أخ كريم ، قال : فاذهبوا فأنتم الطلقاء »[3]

فأىُّ رحمة هذه ؟ وأىُّ لين هذا الذى جعله الله فى قلوب المؤمنين ؟ وهل مثْل هذا الدين يُعارَض ويُنْصرَف عنه ؟

إذن : يُسلِّط الحق - تبارك وتعالى - الأشرار بعضهم على بعض ، وهذه آية نراها فى الظالمين فى كل زمان ومكان ، ويجلس الأخيار يرقبون مثل هذه الصراعات التى يُهلك الله فيها الظالمين بالظالمين .

---

(١) القَرَبُوس : حنْو السَّرْج . وحنْو كل شىء : اعوجاجه . فحنو الرَّحْل والسَّرْج : كل عود مُعوجّ من عيدانه . [لسان العرب - مادتا : قربس ، حنا] . وقد ذكر ابن هشام فى السيرة النبوية (٤٠٥/٤) « أن رسول الله ﷺ كان يضع رأسه تواضعاً لله ، حين رأى ما أكرمه الله به من الفتح ، حتى إن عثنونه (طرف لحيته) ليكاد يمسّ واسطة الرَّحْل » .

(٢) قال أبو سفيان حين مرّت أمامه جيوش المسلمين يوم فتح مكة : ما لأحد بهؤلاء قِبَل ولا طاقة ، والله يا أبا الفضل ، لقد أصبح مُلْك ابن أخيك الغداة عظيماً . قال العباس : يا أبا سفيان إنها النبوة . قال : فنعم إذن .

(٣) قال ابن إسحاق : حدثنى بعض أهل العلم أن رسول الله ﷺ قام فى خطابه على باب الكعبة فقال : لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، صدق وعده ، ونصر عبده ، وهزم الأحزاب وحده ، إلى أن قال : ما ترون أنى فاعل فيكم ؟ قالوا : خيراً ، أخ كريم ، وابن أخ كريم ، قال : فاذهبوا فأنتم الطلقاء » [السيرة النبوية لابن هشام ٤١٢/٤] .

ثم يقول سبحانه وتعالى : ﴿ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ .. (٤٠) ﴾ [الحج] صوامع جمع صومعة ، وهى مكان خاصٌّ للعبادة عند النصارى ، وعندهم مُتعبَّد عام يدخله الجميع هو الكنائس ، أما الصَّومعة فهى مكان خاص لينفرد فيه صاحبه وينقطع للعبادة ، ولا تكون الصَّوْمعة فى حضر ، إنما تكون فى الجبال والأودية ، بعيداً عن العمران لينقطع فيها الراهب عن حركة حياة الناس ، وهى التى يسمونها الأديرة وتوجد فى الأماكن البعيدة .

وقد حرم الإسلام الرهبانية بهذا المعنى ؛ لأنها رهبانية ما شرَّعها الله ، كما قال سبحانه : ﴿ وَرَهْبَانِيَّةً[1] ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلاَّ ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا .. (٢٧) ﴾ [الحديد]

ومعنى : ﴿ وَبِيَعٌ .. (٤٠) ﴾ [الحج] البِيَع هى الكنائس .

فالحق ـ سبحانه وتعالى ـ ما نعَى عليهم الانقطاعَ للعبادة ، لكن نعى عليهم انقطاعهم عن حركة الحياة ، وأسباب العيش ؛ لذلك قال : ﴿ فَمَا رَعَوْهَا[2] حَقَّ رِعَايَتِهَا .. (٢٧) ﴾ [الحديد]

وقد أباح الإسلام أيضاً الترهُّب والانقطاع للعبادة ، لكن شريطة أن تكون فى جلْوَة يعنى : بين الناس ، لا تعتزل حركة الحياة ، إنما تعبَّد الله فى كل حركة من حركات حياتك ، وتجعل الله تعالى دائماً فى بالك ونُصْبَ عينيك فى كُلِّ ما تأتى ، وفى كل ما تدع ، إذن :

---

(١) الترهب : التعبُّد ، كانوا يترهبون بالتخلى من أشغال الدنيا ، وترك ملاذها والزهد فيها ، والعزلة عن أهلها وتعهُّد مشاقها ، حتى إن منهم من كان يخصى نفسه ويضع السلسلة فى عنقه وغير ذلك من أنواع التعذيب ، والراهب : هو المتعبِّد فى الصومعة . [لسان العرب ـ مادة : رهب] .

(٢) أى : فما قاموا بما التزموه حق القيام وهذا ذم لهم من وجهين : أحدهما : الابتداع فى دين الله ما لم يأمر به الله . والثانى : فى عدم قيامهم بما التزموه مما زعموا أنه قربة يقربهم إلى الله عز وجل . قاله ابن كثير فى تفسيره (٤/ ٣١٥) .

هناك فَرْق بين مَنْ يعبد الله فى خَلْوته ، ومَنْ يعبد الله فى جلْوته .

لذلك سيدنا عمر - رضى الله عنه - قال عن الرجل الذى لازم المسجد للعبادة وعرف أن أخاه يتكفَّل به ويُنفق عليه ، قال : أخوه أعبد منه . كيف ؟

قالوا : لأنك تستطيع أنْ تجعل من كل حركة لك فى الحياة عبادةً ، حين تُخلص النية فيها لله عز وجل . ولك أن تقارن بين مؤمن وكافر ، كلاهما يَعمل ويجتهد ليقُوتَ نفسه وأهل بيته ، ويحيا الحياة الكريمة ، وهذا هدف الجميع من العمل ، لكن لو أن المؤمن اقتصر فى عمله على هذا الهدف لاستوى مع الكافر تماماً .

إنما للمؤمن فوق هذا مقاصد أخرى تكمن فى نيته وضميره ، المؤمن يفعل على قَدْر طاقته ، لا على قَدْر حاجته ، ثم يأخذ ما يحتاج إليه ويُنفق من الباقى ويتصدَّق على مَنْ لا يقدر على الحركة الحياتية .

لذلك يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ① الَّذِينَ هُمْ فِي صَلاتِهِمْ خَاشِعُونَ ② وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ③ وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ ④﴾ [المؤمنون] هل يعنى : مُؤدُّون فقط ؟ لا ، بل إن المؤمن يتحرك ويعمل ويسعى ، وفى نيته مَنْ لا يقدر على السَّعْى والعمل ، فكأنه يُقبل على العمل ويجتهد فيه ، وفى نيته أنْ يعمل شيئاً لله بما يفيض عن حاجته من ناتج عمله وهذا ما يُميِّز المؤمن فى حركة الحياة عن الكافر .

وأذكر مرة أننا جئنا من الريف فى الشتاء فى الثلاثينيات لزيارة سيدنا الشيخ الحافظ التيجانى ، وكان مريضاً - رحمه الله ورضى الله عنه - وكان يسكن فى حارة ، وفضَّلنا أن نأخذ (تاكسى) يُوصِّلنا بدل أن نمشى فى وَحْل الشتاء ، وعند مدخل الحارة رفض سائق

(التاكسى) الدخول وقال : إن أجرة التوصيل لا تكفى لغسيل السيارة وتنظفيها من هذا الوَحْل ، وبعد إلحاح وافق وأوصلنا إلى حيث نريد ، فأعطيناه ضِعْف أجرته ، لكنى قبل أن أنصرف قلتُ له : أنت لماذا تعمل على هذا (التاكسى) ولماذا تتعب ؟ قال : من أجل مصالحى ومصالح أولادى ، فقلت له : وما يُضيرك إنْ زدتَ على ذلك وجعلْتَ فى نيتك أنْ تُيسِّر بعملك هذا على الناس ؟ فاهتمَّ الرجل ولبسته الكلمة فقال : والله لا أردُّ راكباً أبداً .

ومعنى : ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ ④﴾ [المؤمنون] لم يقل مؤدون ؛ لأن ﴿فَاعِلُونَ ④﴾ [المؤمنون] تعنى : أن نيتهم فى الفعل أنْ يفعلوا على قَدْر طاقتهم ويجتهدوا لتوفير شىء بعد نفقاتهم يتصدقون منه .

إذن : حرَّم الإسلام الرهبانية التى تَحرِم المجتمع من مشاركة الإنسان فقال ﷺ : « لا رهبانية فى الإسلام »[1] لأنه اعتبر كل حركة مقصود منها صالحُ المجتمع كله حركةً إيمانية عبادية ، ومن هنا كان العمل عبادة .

وقد وضع العلماء شروطاً لِمَنْ أراد الانقطاع للعبادة : أولها : ألاَّ يأخذ نفقته من أحد ، بمعنى أن يعمل أولاً لِيُوفِّر احتياجاته طوال فترة انقطاعه ، وصدق (إقبال) حين قال :

---

(١) قال العجلونى فى كشف الخفاء (٣١٥٤) : « قال ابن حجر : لم أره بهذا اللفظ ، لكن فى حديث سعد بن أبى وقاص عند البيهقى : « إن الله أبدلنا بالرهبانية الحنيفية السمحة » . وقد أخرج أحمد فى مسنده (٦/٢٢٦) من حديث عائشة رضى الله عنها أن رسول الله ﷺ قال : « إن الرهبانية لم تكتب علينا » .

لَيْسَ زُهْداً تصوف من تقى ... فـرَّ من غَمْرة الحياة بدين
إنما يُعرَفُ التصوفُ في الـ ... سُّوق بمالٍ ومَطْمعٍ وفُتُون

ثم يقول تعالى : ﴿وَصَلَوَاتٌ.. ﴿٤٠﴾﴾ [الحج] وهذه لليهود يُسمُّون مكان التعبد : صَلُوتاً . لكن ، لماذا لم يرتبها القرآن ترتيباً زمنياً ، فيقول : لهدمت صلوات و صوامع وبيع ؟ قالوا : لأن القرآن يُؤرِّخ للقريب منه فالأبعد .

﴿وَمَسَاجِدُ .. ﴿٤٠﴾﴾ [الحج] وهذه للمسلمين ﴿يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيراً .. ﴿٤٠﴾﴾ [الحج]

وما دام الحق سبحانه ذكر المساجد بعد الفعل ﴿لَهُدِّمَتْ .. ﴿٤٠﴾﴾[الحج] فهذا دليل على أنه لا بُدَّ أن يكون للمسلمين مكان يُحكر للعبادة ، وإنْ جُعِلَتْ الأرض كلها لهم مسجداً وطَهُوراً ، ومعنى ذلك أنْ تصلي في أيِّ بقعة من الأرض ، وإنْ عُدم الماء تتطهر بترابها ، وبذلك تكون الأرض مَحَلاً للعبادة ومَحَلاً لحركة الحياة وللعمل وللسَّعْي ، فيمكنك أن تباشر عملك في مصنعك مثلاً وتُصلِّي فيه ، لكن الحق سبحانه يريد منا أن نُخصِّص بعض أرضه ليكون بيتاً له تنقطع منه حركة الحياة كلها ، ويُوقَف فقط لأمور العبادة .

لذلك قال ﷺ : « مَنْ بنى لله مسجداً ولو كمفْحَص قَطَاة[1] بنى الله له بيتاً في الجنة »[2] .

---

(١) القطا : طائر ، سُمِّي بذلك لثقل مَشْيه . [لسان العرب ـ مادة : قطا] ومفحص القطاة : حيث تُفرِّخ فيه من الأرض . والأفحوص : مَبيض القطا لأنها تفحص الموضع ثم تبيض فيه ، وكذلك هو للدجاجة [لسان العرب ـ مادة : فحص] .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٢٤١/١) عن ابن عباس ، وأخرجه أبو نعيم في حلية الأولياء (٢١٧/٤) من حديث أبي ذر ، وكذا (٢٤/٥) من حديث أبي بكر الصديق .

فقـوله تعالى : ﴿ لَّهُدِّمَتْ .. وَمَسَاجِدُ .. ﴿٤٠﴾ ﴾ [الحج] تدل على مكان خـاص للعبـادة وإلاَّ لو اعتُـبِرَتْ الأرضُ كلهـا مسـجداً ، فـماذا تهدم ؟

وعليه ، فكل مكان تُزاوَل فيه أمورٌ غير العبادة لا يُعتبر مسجداً ، كأمـاكن الصلاة التى يتخذونهـا تحت العمارات السكنيـة ، هذه ليست مـساجـد ، والصـلاة فيـهـا كـالصلاة فى الشـارع وفى البـيت ؛ لأن المسجد (مكان) وما يُبنى عليه (مكين) .

والمسجدية تعنى : المكان من الأرض إلى السماء ، بدليل أننا فى بيت الله الحرام نصلى فـوق سطح المسجـد ، ونتجه لجوِّ الكعـبة ، لا للكعبة ذاتها ، لماذا ؟ لأن جَوَّ الكعبة إلى السماء كعبة ، وكذلك لو كنا فى مـخـابىء أو فى مناجم تحت الأرض ؛ لأن مـا تحت الكعـبـة من الأرض كعبة . وكذلك فى المسْعَى إذا ضاق الدور الأول يسعى الناس فى الثانى وفى السطح ، لأن جو المسْعَى مَسْعَى .

إذن : المسجد ما حُكر للعبادة ، وخُصِّص للمسجدية من أرضه إلى سمائه ، وهذا لا يُمارس فيه عمل دنيوى ولا تُعقد فيه صفقة .. إلخ .

أما أنْ نجعل المسجد تحت عمارة سكنية ، وفوق المسجد مباشرة يباشـر الناس حيـاتهم ومعيـشتـهم بما فيـها من هَرج ولَهْـو ، حلال وحرام ، وطهارة ونجـاسة ، ومعاشرة زوجيـة .. إلخ فهذا كله يتنافى مع المسـجدية التى جعلهـا الله حكْراً للعبادة من الأرض إلى السـماء . فلنُسَمِّ هذه الأماكن : مُصلّى . ولا نقول : مسجد .

ثم يصف الحق سبـحانه المساجـد بقوله : ﴿ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيراً .. ﴿٤٠﴾ ﴾ [الحج] لأن ذكْر الله فى المساجد دائم لا ينقطع ، ونحن لا نتحدث عن مسجد ، ولا عن مـساجد قُطْر من الأقطار ، إنما المراد

مساجد الدنيا كلها من أقصى الشرق لأقصى الغرب ، ومن الشمال للجنوب .

ولو نظرتَ إلى أوقات الصلوات لرأيتَ أنها مرتبطة بحركة الفلك وبالشمس فى الشروق ، وفى الزوال ، وفى الغروب ، وباعتبار فارق التوقيت فى كل بلاد الله تجد أن ذِكْر الله دائم لا ينقطع أبداً فى ليل أو نهار ، فأنت تُؤذِّن للصلاة ، وغيرُك يقيم ، وغيركما يصلى ، أنت تصلى الظهر ، وغيرك يصلى الصبح أو العصر ، بل أنت فى الركعة الأولى من الصبح ، وغيرك فى الركعة الثانية ، أنت تركع وغيرك يسجد .

إذن : هى منظومة عبادية دائمة فى كل وقت ، ودائرة فى كل مكان من الأرض ، فلا ينفكّ الكون ذاكراً لله . أليس هذا ذِكْراً كثيراً ؟ أليستْ كلمة (الله أكبرُ) دائرة على ألسنة الخلق لا تنتهى أبداً ؟

ثم لما كان دَفْع الله الناسَ بعضهم ببعض ينتج عنه معركة تُسْفر عن منتصر ومنهزم ، قال سبحانه : ﴿ وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ .. ٤٠ ﴾ [الحج] فإنْ كان التدافع بين الكفار فإنه لا ينتهى ، وإنْ كان بين حقٍّ لله وباطل حكم الله بأنه باطل لا بُدَّ أن تنتهى بنُصْرة الحق ، وغالباً لا تطول هذه المعركة ؛ لأن الحق دائماً فى حضانة الله ، إنما تطول المعارك بين باطل وباطل ، فليس أحدهما أَوْلَى بنُصْرة الله من الآخر ، فيظل كل منهما يطحن فى الآخر ، وإنْ لم تكن حرباً ساخنة كانت حرباً باردة ، لماذا ؟ لأنه لا يوجد قويٌّ لا هوى له يستطيع أن يفصل فيها ، وطالما تدخَّل الهوى تستمر المعركة .

يبقى فى القسمة العقلية المعركة بين حق وحق ، وهذه لا وجودَ لها ؛ لأن الحق واحد فى الوجود ، فلا يمكن أنْ يحدث تصادم أبداً بين أهل الحق .

والحق - تبارك وتعالى - فى نُصْرته لأوليائه يستطيع أن ينصرهم دون حرب ، ويُهلك أعداءهم ، لكن الحق سبحانه يريد أنْ يأخذوا هم بأسباب النصر ؛ لذلك يُعلِّمهم أصول هذه المسألة ، فيقول سبحانه :

﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّىٰ إِذَا أَثْخَنتُمُوهُمْ[1] فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّىٰ تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ .. (٤)﴾ [محمد]

ومعنى ﴿أَثْخَنتُمُوهُمْ .. (٤)﴾ [محمد] يعنى : جعلتموهم لا يقدرون على الحركة ﴿فَشُدُّوا الْوَثَاقَ .. (٤)﴾ [محمد] لا تُجهزوا عليهم ، ولا تقتلوهم ، إنما شُدُّوا قيودهم واستأسروهم ، وهذه من رحمة الإسلام وآدابه فى الحروب ، فليس الهدف القتل وإزهاق الأرواح ثم ﴿فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً .. (٤)﴾ [محمد] منّاً إنْ كان هناك تبادل للأسرى . فأنت تمنُّ وهو يمنُّ . والفداء أنْ يفدى نفسه .

وكانت هذه المسألة حجة لنا حينما نتحدث عن الرقّ فى الإسلام ، ونرد على هؤلاء الذين يحلو لهم اتهام الإسلام ، ويستخدمون فى ذلك السفسطة والمراوغة اللغوية لإقناع الناس بأن الإسلام ساهم فى نَشْر الرقّ والعبودية .

ونقول : لقد جاء الإسلام والرق موجود ومنتشر لم يُشرِّعه الإسلام ، ولم يُوجِدْه بداية ، حيث كانت أسباب الرق كثيرة ، وأسباب

---

(١) أثخنته الجراح : أعجزته عن الحركة أو عن القتال . [القاموس القويم ١/١٠٦] وقال أبو العباس : معناه غلبتموهم وكثر فيهم الجراح . [لسان العرب - مادة : ثخن] .

الاستعباد متعددة : فَمَنْ تحمّل دَيْناً وعجز عن سداده يُستعبد لصاحب الدين ، ومَنْ عمل ذنباً وخاف من عقوبته أخذوه عبداً ، ومَنْ اختطفه الأشرار في الطريق جعلوه عبداً .. إلخ .

فلما جاء الإسلام عمل على سَدِّ منابع الرقّ هذه ، وجعل الرقّ مقصوراً على الحرب المشروعة . ثم فتح عدة مصارف شرعية للتخلُّص من الرق القائم ، حيث لم يكُنْ موجوداً من أبواب العتق إلا إرادة السيد في أنْ يعتق عبده ، فأضاف الإسلام إلى هذا الباب أبواباً أخرى ، فجعل العتق كفارة لبعض الذنوب ، وكفارة لليمين ، وكفارة للظِّهار[1] ، وحثَّ على الصدقة في سبيل العتق ، ومساعدة المكاتب الذي يريد العتق ويسعى إليه .. إلخ .

فإذا لم تعتق عبدك ، فلا أقل من أن تطعمه من طعامك ، وتُلبسه من ملبسك ، ولا تُحمِّله ما لا يطيق ، وإنْ حمَّلته فأعنْه ، وكما يقول النبي ﷺ « إنما هم إخوانكم »[2] .

ونلاحظ على الذين يعيبون على الإسلام مسألة الرقّ في الحروب أنهم يقارنون بين الرقّ والحرية ، لكن المقارنة هنا ليستْ كذلك ،

---

(١) ظاهر من امرأته ، قال لها أنها عليه كظهر أمه أو أخته أو غيرهما من المحرمات فيحرمها ولا يطلقها ، وكان العرب يفعلون ذلك إيذاءً لهن وإضراراً فلما اشتكت الزوجة التي ظاهرها زوجها للنبي ﷺ نزلت الآيات تنظم الظهار ، فإما طلاق أو كفارة كبرى إذا رغب في العودة إلى زوجته عقوبة له على الظهار ، قال تعالى : ﴿الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَائِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَاتِهِمْ إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إِلَّا اللَّائِي وَلَدْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ الْقَوْلِ وَزُورًا وَإِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ۝٢﴾ [المجادلة] الكفارة الكبرى إما : تحرير رقبة ـ صيام شهرين متتابعين ـ إطعام ستين مسكيناً .

(٢) عن أبي ذر ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ قال : « إن إخوانكم خولكم ، جعلهم الله تحت أيديكم ، فمن كان أخوه تحت يده فليطعمه مما يأكل ، وليلبسه مما يلبس ، ولا تكلفوهم ما يغلبهم ، فإن كلفتموهم ما يغلبهم فأعينوهم » أخرجه البخاري في صحيحه (٢٥٤٥) ، وكذا مسلم في صحيحه (١٦٦١) كتاب الإيمان .

المقارنة هنا بين الرق والقتل ؛ لأنه لا يُسترقّ إلا مَنْ قدر المسترقُّ عليه وتمكَّن منه فى المعركة ، وكان باستطاعته قَتْله ، لكن رحمة الله بعباده منعتْ قتله ، وأباحت أَخْذه رقيقاً ، فالنفعية للمقاتل المنتصر يقابلها حَقْن دم الآخر ، ثم بعد انتهاء الحرب نحثُّ على عتقه ، ونفتح له أبواب الحرية .

إذن : لا تقارن بين عبيد وحر ، إنما قارن بين العبودية والقتل : أيهما أقلّ ضرراً ؟

لذلك قال تعالى : ﴿ قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٤﴾ وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٥﴾ ﴾ [التوبة]

هذه نتائج ستٌّ للأمر ﴿ قَاتِلُوهُمْ .. ﴿١٤﴾ ﴾ [التوبة] وجواب الأمر مجزوم بالسكون كما في (يُعذِّبْهم) ومجزوم بحذف حرف العلة كما فى (وَيُخْزِهِم) ، والخزى لأنهم كانوا مغترين بقوتهم ، ولديهم جبروت مفتعل ، يظنون ألاَّ يقدر عليهم أحد ، وكذلك في : ينصركم ، ويشف ، ويذهب .

ثم قطع السياقُ الحكمَ السابق ، واستأنف كلاماً جديداً ، وإنْ كان معطوفاً على ما قبله في اللفظ ، وهذا مظهر من مظاهر الدقة فى الأداء القرآني ، وملْحَظ لرحمة الله تعالى حتى بالكفار ، فقال تعالى : ﴿ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ .. ﴿١٥﴾ ﴾ [التوبة] هكذا بالرفع ، لا بالجزم فقطع الفعل (يتوب) عما قبله ؛ لأن الله تعالى لم يشأ أن يشرِك بينهم حتى فى جواب الأمر .

وحتى على اعتبار أنهم هُزِمُوا ، وكُسرت شوكتهم ، وضاعتْ

هيبتهـم ، لعلهم يفيقون لأنفسهم ، ويعـودون للحق ، وهذه من رحمة الله بالكافرين فى معاركهم مع الإيمان .

لكن ، لماذا يتـوب الله على الكفار ويرحمهم وهم أعـداء دينه وأعداء نبيه ؟ قالوا : لأنه سبحانه وتعـالى ربهم وخالقهم ، وهم عباده وعياله ، وهو أرحم بهم ، ومرادات الله فى الخَلْق أن يكونوا جميعاً طائعين .

لذلك ، يقـول سبـحانه فى الحـديث القدسي : « قـالت السـماء : يا رب ائذن لى أن أسقط كسفاً علـى ابن آدم فقد طعم خـيرك ومنع شكرك ، وقـالت الأرض : يا رب ائذن لى أن أخـسف بابن آدم فـقـد طَعم خيـرك ومنع شكرك ، وقالت الجبـال : يا رب ائذن لى أن أسقط على ابن آدم فقـد طعم خيـرك ومنع شكرك ، وقالت البـحار : يا رب ائذن لى أن أغرق ابن آدم فقد طعم خيرك ومنع شكرك » .

فالكـون كله ناقم على الكافرين ، مـتمـرد على العصـاة ، مغـتاظ منهم ، فـمـاذا قال الحق ـ تبـارك وتعـالى ـ لهم ؟ قـال سـبحـانه : « دعونى وخَلْقى ، لو خلقـتموهم لرحـمتموهم ، فـإنْ تابوا إلىَّ ، فأنا حبيبهم ، وإنْ لم يتوبوا فأنا طبيبهم » .

نعود إلى قـوله تعالى : ﴿ وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ .. ﴿٤٠﴾ ﴾ [الحج] وما دام أن النصر من عند الله فإياكم أنْ تبحـثوا فى القوة أو تقيسوا قـوتكم بقـوة عـدوكم ، فلربك عـز وجل جنود لا يـعلمـهـا إلا هو ، ووسائل النصر وأنت فى حضانة الله كثيرة تأتيك من حيث لا تحتسب وبأهْون الأسبـاب ، أقلّها أن الله يُريكم أعـداءكم قليلاً ويُكثِّـر المؤمنين فى أعـيـن الكافـرين ليـفتَّ ذلك فى عَضُـدهم ويُرهبـهـم ويُزعـزع مـعنوياتهم ، وقـد يحـدث العـكس ، فـيرى الـكفـار المـؤمنين قليـلاً فيجترئون عليهم ، ويتقدمون ، ثم تفاجئهم الحقيقة .

إذن : ﴿ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلاَّ هُوَ .. (٣١) ﴾ [المدثر] فلا تُعوِّل فقط على قوتك وتحسب مدى تكافُئك مع عدوك ، دَعْكَ من هذه الحسابات ، وما عليك إلا أنْ تستنفد وسائلك وأسبابك ، ثم تدع المجال لأسباب السماء .

وأقلُّ جنود ربك أنْ يُلقى الرعب فى قلوب أعدائك ، وهذه وحدها كافية ، ويُرْوى أنهم فى إحْدى المعارك الإسلامية تغيرت رائحة أفواه المسلمين ، وأحسُّوا فيها بالمرارة لطول فترة القتال ، فأخرجوا السواك يُنظفُّون أسنانهم ، ويُطيِّبون أفواههم ، عندها قال الكفار : إنهم يسنُّون أسنانهم ليأكلونا ، وقذف الله فى قلوبهم الرعب من حيث لا يدرون .

ثم يقول تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ (٤٠) ﴾ [الحج] عزيز : يعنى لا يُغلب ، وما دام أن الله تعالى ينصر مَنْ نصره فلا بُدَّ أن تنتهى المعركة بالنصر مهما خارتْ القوى ومهما ضَعُفتْ ، ألم يكُن المسلمون فى مكة ضعفاء مضطهدين ، لا يستطيع واحد منهم أن يرفع رأسه بين الكفار ؟

ولما نزل قول الله تعالى وهم على هذه الحال : ﴿ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ (٤٥) ﴾ [القمر] تعجب عمر [1] بفراسته وعبقريته : أىُّ جمع هذا الذى سيُهزم ونحن غير قادرين حتى على حماية أنفسنا ؟ فلما رأى يوم بدر قال : صدق الله ﴿ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ (٤٥) ﴾ [القمر]

فما دام أن الله قوى عزيز فلا بُدَّ أن ينصركم ، وهذه مسألة

(١) أورد ابن كثير فى تفسيره وعزاه لابن أبى حاتم (٤/٢٦٦) عن عكرمة قال : « لما نزلت ﴿ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ (٤٥) ﴾ [القمر] . قال عمر : أىّ جَمْع هذا ؟ أى أى جمع يغلب ؟ قال عمر : فلما كان يوم بدر رأيت رسول الله ﷺ يثب فى الدرع وهو يقول : « سيهزم الجمع ويولون الدبر » فعرفت تأويلها يومئذ .